

فسيفساء متحف وهران بالجزائر

د. محمد بن عبد المؤمن*

لا تزال اللوحات الفسيفسائية الميثولوجية حتى الوقت الحاضر تزين القاعة الرومانية بالمتحف الوطني أجمد زبانة بوهران، وجدت هذه الفسيفساء الميثولوجية^١ بالموقع الأثري بورتوس ماغنوس - بطيوة - مزينة لبلاط إحدى المنازل الرومانية بهذه المدينة ، ويرجع تاريخ اكتشاف هذا المنزل إلى فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

يشير بربروغر (A.Berbrugger) في القسم الأول من تقريره الذي نشر نصه بالمجلة الإفريقية العدد السابع لسنة ١٨٦٣م أن المهندس المعماري لمحافظة الغرب فيالا دي سوربيي (Viala de Sorbier) قد كلف مفتش المباني الأثرية بأرزيو ومستغانم بمهمة التنقيب بالهضبة الشرقية لموقع بورتوس ماغنوس فبدأت تبرز النتائج الأولية لعمله التنقيبي بعد إشارة من المعمر الفرنسي الذي كان يعمل مزارعا بمزرعة المقدم روبرت (Robert)، أفاد بها نيكول (Nicole) بأن أساس الحائط الجنوبي لهذه المزرعة قد بني على فسيفساء رومانية، وعلى ضوء هذه المعلومات انطلقت التنقيبات بالمكان المحدد، وبعد عمق ١,٥م من التنقيب تأكدت صحة المعلومات التي أدلى بها هذا المعمر، فرفع الردم عن الفسيفساء ثم تواصل العمل التنقيبي حتى تمكن نيكول (Nicole) من الكشف عن مخطط هذا المنزل الذي قام برسمه فيالا دي سوربيي (Viala De Sorbier) سنة ١٨٦٢م، ثم نقله بعده غزال (S.Gsell)^٢.

تشمل فسيفساء قاعة الضيوف على أربع لوحات ذات مشاهد ميثولوجية، اكتشفها السيد نيكول (Nicole) سنة ١٨٦٢م، وظلت معروضة في الهواء الطلق طيلة أربعة وعشرون سنة، ولما توقف عندها الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث (Napoleon III) أثناء رحلته سنة ١٨٦٥م، اقترح نقلها في البداية إلى متحف الجزائر أو متحف اللوفر بباريس في وقت لم يكن بوهران متحفا خاصا بها، غير أنّ الجمعية الجغرافية والأثرية للإقليم الوهراني برئاسة ديمات (L.Demaeght) تحملت تكاليف نقلها إلى وهران وإيجاد مكان خاص لحفظها، ولما تحصّلت هذه الجمعية في ٨ مارس ١٨٨٤م على مقرّ بالمستشفى المدني بالمدينة، نقلت هذه اللوحات إلى وهران سنة ١٨٨٦م بعد تقسيمها إلى أربعة أقسام حسب المشاهد التي تضمّنتها، ولم تكن

* قسم الحضارة جامعة وهران

^١ أنظر الملحق

² A.Berbrugger, Chronique, R.afr, 7, 1863, p227.

عملية نقلها بالأمر الهين إذ كلفت خزينة الجمعية حوالي ثلاثة آلاف فرنك فرنسي قديم^٣.

لم ينقل إطار هذه اللوحات الفسيفسائية المزين بالدوائر المتقاطعة والخطوط المتشابكة والمعينات مع باقي مشاهد الميثولوجية^٤، هذه الأخيرة هي الآن معروضة بالقاعة الرومانية لمتحف أحمد زبانة بوهراي مقسمة إلى أربع لوحات ومحاطة بإطار خشبي تظهر عليها بقع بيضاء وخطوط سوداء نتيجة عملية ترميمها. يبلغ طولها الإجمالي عند اكتشافها ١٠,٩٤ م وعرضها ٤ م، وإذا ما تمعنا في الرسم الذي أنجزه فيالا دي سوربيي (Viala De Sorbier) يلاحظ أن الإطار المحيط بمشهد أسطورة كابيروس (Cabirus) يُظهر اللوحة على شكل الحرف اللاتيني "T" مقلوب من جهة المدخل^٥.

صنعت هذه الفسيفساء من الرخام الأحمر، والأصفر المستخرج من محجرة سيدي بن بيقى الواقعة غرب الموقع الأثري، والتي لا تزال تعمل حتى وقتنا الحاضر، كما استعملت ألوان أخرى كالأسود، والأحمر، والأخضر، والرمادي والأصهب، ويذكر دولا بلانشير (R. De Lablanchere) أن الفسيفسائيين الذين أنجزوها قلّدوا مشاهد سبق وأن تعرّفوا عليها، وكان إطارها نموذجا جاهزا نقلت منه الأشكال الموجودة عليه^٦.

لقد أنجزت هذه الفسيفساء من مكعبات صغيرة متساوية القياسات ومختلفة الألوان، هذه التقنية المعروفة باسم (Opus Tessellatum)، أما مشاهد الميثولوجية فهي لا تختلف عن تلك التي عرفتها بعض مدن بلاد المغرب القديم كاللوحات التي تمثل أسطورة الإله هرقل (Hercules) بفوليبيليس (Volubilis) وأسطورة آشيل (Achille) بتيبازة (Tipasa)^٧.

تمثل اللوحة الأولى التي رُين بها مدخل القاعة مشهدا من أسطورة كابيروس "Cabirus"، الإله الإغريقي الذي يعمل على نمو الحقول، وحماية البحارة من الغرق^٨. وتظهر بالزاويتين العلويتين لهذا المشهد أقنعة لآلهة البحر، وبالزاويتين

^٣ F. Doumergue, (Histoire du musée d'Oran de l'année 1882 à l'année 1898), BSGAO, 45, 1925, pp 75-84 ; L.Demaeght, (Catalogue raisonne des objets archeologique du musée de la ville d'Oran,Oran 1921, p 07.

^٤ لا تزال بقايا قطع فسيفسائية صغيرة موجودة بالموقع الأثري.

^٥ P. Gauckler , Inventaire des mosaïques de la Gaule et de l'Afrique ,II , Paris, Ernest Leroux, 1910, pp 23-24

^٦ R. de Lablanchere, Musée d'Oran , Paris ,Ernest Leroux ,1893, pp 47-48

^٧ M. Blanchard, "La grande mosaïque de l'Algérie ancienne", Dossier de l'Archéologie, 31, Nov-Dec 1978, pp 60-99.

^٨ J.Schmidt, Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine ,Paris ,larousse , 2000,p35

السفليتين أقنعة لآلهة الحقول، في حين تشابهت مواضيع الجناح العلوي والسفلي لهذه اللوحة، واللذان يظهر عليهما أسدان فوقهما طفلان يحمل كل منهما عصا وتتوسطهما مزهرية مملوءة بالنباتات، ويتبع كل أسد سنتورا بحريا، كما أحيطت باللوحة مشاهد من الجهتين اليمنى واليسرى يبدو على كل منهما جسم مجتح ونباتات بحرية وحيوانين خرافيين لهما جسم أسد وجناحي عقاب ورأس وأذن حصان وزعانف السمك^٩.

أما المشهد العام للوحة يظهر كابيروس (Cabirus) يلعب مع نمرة ومعه رفيقه (Mitos) وكراتيبا (Krateia) والذي براتولا يوس (Pratolaos) الذي يشاركه اللعب، ويتوسط اللوحة مشهدا للآله بانوس (Panos) حارس الرعاة والماشية الذي يظهر نصف عار ويحمل بيده اليسرى عصا وباليمنى نايا، ويرافق الإله كابيروس (Cabirus) امرأتين مرتديتين لباسا مزينا بأوراق نباتية.

تمثل لوحات القسم الداخلي لهذه القاعة مجموعة مشاهد كانتصار الإله أبولو (Apollo) على مارسيس (Marsyas) وحجزه لتعذيبه^{١٠}، ويظهر أبولو (Apollo) واقفا وقففة المنتصر، ترتكز يده اليمنى على عود قصير، ويسراه على وركه، تقف إلى يمينه إلهة بجناحين تحمل بيدها اليمنى جريد نخلة وبيسراها آلة الرباب، وهي محاطة بكاهنات باكوس اللواتي يعزفن على الصنج، و تظهر الشجرة التي سيربط فيها مارسيس "Marsyas" المرتدي جلد نمرة محاولا الفرار^{١١}.

يلي ذلك مشهد الإله نبتونس (Neptunus) يحمي الآلهة لاتونة (Latona) والدة أبولو (Apollo) من الأفعى بيثون (Python)، ويشاهد أكيو (Aquila) مجنحا ومرفوقا بسنتورين بحريين، يحمل إناء وفوق كتفيه عصا، كما تظهر لاتونة (Latona) وأختها أورتيجيا (Ortygia)^{١٢} التي تمدّها يدها للتوجّه إلى ميناء ديلوس (Delos) الذي مّثل في صورة إله يرتكز على رصيف صخري يحمل بيده اليمنى مرساة بحرية، ويقف على يسراه الإله نبتونس (Neptunus) إله البحر مسلحا بحربة يطارد بها الأفعى بيثون (Python) التي وقعت تحت رحمة الحورية كستاليا (Castalia) التي تحمل صحنًا فوق رأسها، زيادة إلى ذلك ظهرت على مشهد هذه اللوحة خطوط متموجة ترمز لأمواج البحر وعروسا للبحر تركب أسدا بحريا، وأخرى جالسة على صخرة الشاطئ وخلفها بيتا وشجرة وسنتورين يركبان

^٩ L.Demaeght, (catalogue raisonne des objets archeologiques...) op.cit, p 8n°1

^{١٠} محمد بن عبد المؤمن، بورتوس ماغنوس Portus Magnus: بطيوة - دراسة مونوغرافية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، السنة الجامعية ٢٠٠٤-٢٠٠٥، غير مطبوعة، ص ١٤٣

^{١١} L.Demaeght, op.cit, p 11n°2

^{١٢} يذكر كذلك أن أورتيجيا هو الاسم الثاني لجزيرة ديلوس. أنظر:

L.Quicherat, Dictionnaire Français-Latin, Paris, Hachette, sans date, p 968

حصانين^{١٣}، ويحيط باللوحة مشاهد لكاهنات باخوس، وستتور يرقص ويعزف على الناي^{١٤}.

تمثل اللوحة الرابعة مشهدا للإله هرقل (Hercules) وهو يلقي القبض على السنتور شيرون^{١٥} الذي يظهر نصفه حصان، والنصف الآخر إنسان، بحيث يضغط عليه بركبته اليسرى ويهدده بعصا خشبية، في حين ينطلق آشيل (Achilles) من الكوخ محاولا إنقاذ سيده. وتظهر امرأة ترافقها جاريتين يحتمل أن تكونا آلهتي الينابيع، كما يشاهد على أقصى يمين اللوحة شخص جالس مستند على جرة مقلوبة وبجواره حوريتين، واحدة جالسة يفترض أنها أم السنتور شيرون التي تبكي ابنها، وتحمل الحورية الأخرى كأسا يفترض أنها زوجة تيثس (Tethys)^{١٦}، وعلى جانبي اللوحة كاهنات باخوس تضربن على الطبل وتعزفن على الناي بحضور السنتور^{١٧}. هذا وقد وجدت بإحدى غرف هذا المنزل فسيفساء تمثل مشهد انتصار الإله

باخوس (Bacchus) إله الخمر وهو متوج، يشاهد فوق عربة يجرها نمر ونمرة، بيده اليمنى رمحا وباليسرى الحبل الذي يقود به النمرين، ترافقه امرأة تضرب على الطبل وسيلان (Selene) التي هي رمز النشوة، وشخص عار يحمل ناي^{١٨}، وحسب هيرون دو فيلافوس (Heron De Ville Fosse) يمثل أبطال هذا المشهد الإله ليبر (Liber) والالهة ليبرا (Libera) رفقة آلهة الحب التي تقود العربة، كما يظهر الإله باخوس (Bacchus) رفقة امرأة نصف عارية تضرب على الطبل ويتقدمه الإله بانوس (Panos) وساتير (Satyre)^{١٩}. ووجد مثل هذا المشهد الخاص بالإله باخوس (Bacchus) بالعديد من مدن بلاد المغرب القديم كقيصرية (Caesarea)^{٢٠}. زيادة على ذلك توجد بمتحف أحمد زبانة بوهرا ن قطع فسيفسائية بنينة اللون صغيرة الحجم ذات أشكال هندسية معقدة جلبت من الموقع الأثري لبورتوس ماغنوس^{٢١}.

إن الزائر لهذا الموقع الأثري يمكن له التعرف على بعض البقايا الخاصة بهذا المنزل والتي لا يزال يحتفظ ببعضها، كالأعمدة، والتيجان، والخزان المائي الذي رمت جوانبه، وبقايا هذا المنزل محاطة اليوم بجدار حديث جمعت بداخله لقي أثرية

¹³ L. Demaeght, (catalogue raisonné des objets...), op.cit., p 11, n° 3.

¹⁴ R. Delablanche, op.cit., p 65 ; P.Gauckler, (Inventaire des mosaïques de la Gaule et de l'Afrique), op ,cit, II, p 111 n° 454.

^{١٥} بن عبد المؤمن محمد ، المرجع السابق ، ص ١٤٥

¹⁶ P. Gauckler, op.cit., p 111 ; L.Demaeght, op.cit., p 12, n° 4

¹⁷ L. Demaeght, (catalogue des objets...)op.cit., p 12, n° 4.

¹⁸ Ibid., p 15, n° 4 ; 2

¹⁹ A. Heron de ville fosse, "La petite Mosaïque de la ferme Robert", Bulletin des antiquités Africaines, III, 1885, p 11, PL I ; L.Foucher, "Dionysos dans les mosaïques d'Afrique", Dossier de l'archéologie, 31, 1978, p 46.

^{٢٠} بن عبد المؤمن محمد ، المرجع السابق ، ص ١٤٧

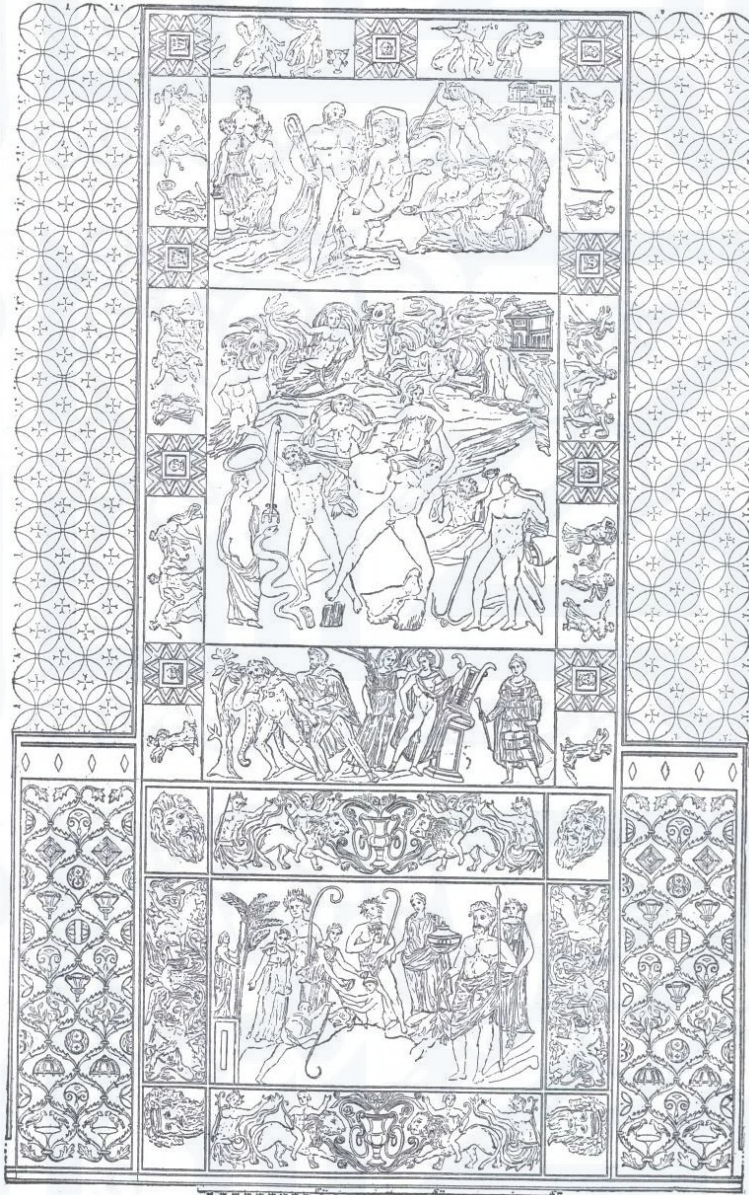
²¹ L. Demaeght, op.cit., pp 15-16, n° 6-7-8

متنوعة مثل الجرتان ومطاحن وقطع من الرخام والزجاج والتيجان غير مدونة بفهارس المتاحف، وتبقى معروضة على الهواء الطلق عرضة للتأثيرات الجوية. يذكر أن هذا المنزل كان مقر إقامة إما لبروقنصل أو على الأقل لشخصية ميسورة الحال^{٢٢} دون الإشارة إلى اسم صاحبه لكن محتوى النقيشة^{٢٣}، والتي عثر عليها بنفس المكان الذي وجدت فيه الفسيفساء^{٢٤} يشير إلى اسم سكستوس كورنيليوس هونوراتوس (Sextus Cornelius Honoratus) فهي النقيشة الوحيدة التي تحتوي على معلومات مفادها أن هذا الشخص عين واليا (Procurator) ببلاد الرافدين في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (Septimus Severus) مما يجعل افتراض أن هذا الشخص قد يكون صاحب هذا المنزل.

²² H.De Rochemonteix « chronique », R.Afr, 13,1869, p69.

²³ CIL . VIII., 9760.

²⁴ L.Demaeght, (Catalogue des objets...), op.cit, p38 n°67.



لوحة (١) " فسيفساء بورتوس ماغنوس " نقلا عن :

F. Doumergue, (Histoire du musée d'Oran de l'année 1882 à l'année 1898),
BSGAO, 45, 1925